القصص

النفس الرقيـــق . . .

لايفان بونين

ترجمة ع . الحمدى

فى المقبرة فوق أكمة نضرة مخضرة صليب جديد مصنوع من خشب البلوط ، قوى ثقيل ، ثابت راسخ ، ناعم الملمس ، بهيج المنظر . وكان الشهر ابريل ، ولكن الأيام غائمة كالحة . فكنت ترى من مراحل شاسعة خلال الأشجار الجرداء شواهد الأجداث قائمة فى المقبرة – مقبرة رحبة ريفية أو أكبر من الريفية بعض الشىء – والريح الباردة القاصفة تصفر صفيراً مخيفاً كلما مرت من تجاويف الأكاليل المصنوع من الخزف الصينى عند قاعدة الصليب . وفى الصليب نفسه ركب اطار مستدير من النحاس الأصفر . وفى الاطار صورة لفتاة حسناء فاتنة من طالبات المدارس ، مهندمة الملبس ، لها عينان فرحتان براقتان تنمان على الحياة والنضارة

هذه الصورة هى صورة (أولجا مسجرسكى)

لما كانت بنتاً صغيرة لم يكن لها مايميزها فى ذلك الجمع الصاخب من ذوى الأثواب السمراء الذين كان لغطهم المتنافر يدوى فى أبهاء المدرسة وصفوفها . وكل ما كان يستطيع الانسان أن يقوله عنها هو أنها ليست إلا واحدة من هؤلاء الفتيات الكثيرات الجميـــلات السعيدات ، وانها ذكية ، لكنها لعوب كثيرة الحركة ، لا تصغى لما يلقيه عليها المعلم فى الصف من دروس . ثم صارت الى النمو ، وأخذت تتفتح أكمامها لا بالأيام بل بالساعات . وفى سن الرابعة عشرة ، وقد أصبح لها خصر أهيف ، وساقان جميلتان متسقتان ، برز نهداها ولاحت عليها تلك الرسوم والملامح الدالة على النضوج ، ولم تستطع لغة البشر بعـــد أن تصف فتنتها وسحرها . وفى سن الخامسة عشرة قيل عنها إنها حسناء . . . وكم كان أترابها ورفيقاتها فى المدرسة شـــديدات العناية بتنظيم شعورهن ، وكم كن نظيفات محترسات فى حركاتهن ! ولكنها ما كانت لتخشى شيئاً فهى دائمـــاً نظيفة الثياب حســـنة الهندام ، متوردة الوجه من غير قصد منها ولا عناء من جانبها ، اجتمع لها فى سنتيها الأخيرتين كل مايميزها من باقى المدرسة ، اجتمع لهـــا الظرف والاناقة وخفة الروح واشراق الطلعة وبريق الذكاء . . . ذلك الى أن أحداً لا يستطيع الرقص مثل (أولجا مسجرسكى) ! ولا يستطيع العدو أو الانزلاق مثلها ! ولسبب ما لم تكن لأحد تلك الألفة التى كانت لها مع صفوف الصغار والاحداث فى المدرسة . ومن غير أن تشعر أصبحت فتاة ، ومن غير أن تشعر ذاعت شهرتها فى المدرســـة . ولم يمض قليل حتى أخذت الألسن تلوك عنها الاحاديث بأنها نزقة متقلبة لا تستطيع أن تحيا بغير عشاق ، وأن التلميذ (شنسين) مدله فى حبها مأخوذ بجمالها ، وأنها هى أيضاً لعلها تحبه ولكنها لكثرة تقلبها وسوء معاملتها جعلته يحاول الانتحار غير مرة . .

فى خلال شتائها الأخير جن جنونها بذلك الفيض من السعادة الذى غمرها . . . كذلك قالوا عنها فى المدرســـة . . . وكان هذا الشتاء مثلجاً قارساً تنزل الشمس فيـــه مبكرة وراء الأيكة الكثيفة من أشجار الشربين الباســـقات خلف بستان المدرسة المكسوة بحلل من الثلج الناصع . ولكن الجو كان رائعاً بساماً على الدوام . اليوم ثلج وغداً شمس . نزهة

قصيرة فى شارع الكنيسة . انزلاقة فى متنزه المدينة . غروب وردى دافئ ؛ موسيقى ... ثم ذلك الجمع الدائم الحركة الذى كانت (أولجا) تلوح من بينه أخفه روحاً وأشده رقة وأوفره سعادة . وفى ذات يوم بينما كانت مندفعة كالأعصار فى غرفة الألعاب تعدو فى أثرها الفتيات الصغار يصرخن ويهتفن مبتهجات استدعتها رئيسة المدرسة على حين غرة . فوقفت بغتة وتنفست نفساً عميقاً ثم رتبت شعرها وسحبت أطراف مئزرها كى توصله الى كتفيها . وبعينين مضيئتين هرعت الى فوق . كانت الرئيسة صغيرة السن ، لكن شعرها كان أبيض ، وكانت جالسة بهدوء الى الطاولة تحت صورة القيصر وفى يديها تطريز قد انكبت عليه واستغرقت فيه .

قالت الرئيسة بالفرنسية دون أن ترفع عينيها عن التطريز (عمى صباحاً يا « مس. مسجرسكى » — انني آسفة لأن هذه ليست المرة الأولى التى اضطررت فيها لاستدعائك الى هنا لأكلمك فى سلوكك) فأجابت (اولجا) — لقد أخذت بارشادك أيتها السيدة — قالت ذلك وهى تقترب من النضدة تنظر اليها باشراق باد وسرور ظاهر ، وفكر شارد ، ولم تؤد اليها من التحية إلا طرفاً ضئيلاً ظريفاً هو كل ما تستطيع تأديته من التحيات .

فقالت الرئيسة « انك لم تسمعى ما أقول — وقد اقتنعت وا أسفاه بهذا » قالت ذلك وسحبت الخيط سحبة تدحرجت لها كرة الخيوط على البلاط الصقيل اللامع ، وتبعتها اولجا بنظرة مستطلعة . ثم رفعت الرئيسة عينيها اليها وقالت « سوف لا أكرر ما أقول . سوف لا أكثر من القول » .

راق (اولجا) غرفة المطالعة هذه ، وراقتها نظافتها الغريبة واتساعها غير المألوف . وأعجبتها زقابق الورد الجنية الزاهية التى كانت موضوعة فى زهرية فوق المكتب . جلت بنظرها الى القيصر الشاب وقد صور بكامل جسمه فى بهو فاخر ، ولبثت ساكتة لا تنبس ببنت شفة .

قالت الرئيسة فى لهجة تدل على معنى مقصود منها . وقد شعرت فى نفسها بسورة من الغضب : (انك لم تعودى الآن بنتاً صغيرة)

فأجابت اولجا فى سذاجة يغلب عليها الحبور . (نعم . سيدتى !)

قالت الرئيسة ولا يزال فى لهجتها معنى تقصده ، وتتعمد الالماع اليه (لكنك لم تصبحى امرأة بعد) واحمر وجهها الشاحب بعض الحمرة وقالت (خبرينى أولاً : لماذا تصففين شعرك بهذا الشكل ؟ انك لتصففينه كالمرأة) .

فأجابت اولجا (ليس من ذنبى يا سيدتى أن يكون شعرى جميلاً) وأمسكت شعرها المنظم الجميل بكلتا يديها وبشكل لا يخلو من دلال .

فقالت الرئيسة (أحقاً ما تقولين ؟ أصحيح أنه لا لوم عليك؟— ألا تلامين على الطريقة التى تنظمين بها شعرك ؟ ألا تلامين على هذه الأمشاط الغالية ؟ ألا تلامين اذا أفقرت أبويك باقتناء حذاء بعشرين روبلا ؟ ولكنى أكرر القول بأنه قد غاب عن بالك انك لا تزالين طالبة ليس إلا) . وهنا قاطعتها أولجا فجأة بأدب ومن غير أن تفقد شيئاً من بساطتها وهدوئها قائلة (عفواً يا سيدتى انك خاطئة ، انى فى الواقع امرأة ، وهل تلامين من يلام على ذلك ؟ انه صديق أبى وجاره أخوك (الكسى ميكالوفتش) ... وقد وقع ذلك فى الريف فى الصيف الماضى) .

* * *

بعد هذا الحوار بشهر أطلق ضابط من أجلاف القوزاق سمج أخرق ، فى هيئة السفلة من الرعاع والأفاقين ، على أولجا عياراً نارياً أرداها قتيلة وهى فى جمع من الناس على رصيف المحطة وقد وصلوا توا بالقطار . وهكذا تحقق بهذا الحادث اعتراف (اولجا) الذى صعق الرئيسة . فقد قال الضابط للمحقق ان (مسجرسكى) قد أخرجته عن وعيه ، وانها فيما مضى كانت لها به صلة من صلات العشق الخفى ، وانها وعدته بالزواج منه ، وفى محطة القطار فى يوم مقتلها عند ما رأته يغادر المدينة الى (توفوجركاسك) أخبرته بغتة بأنها لن تفكر

فى الزواج منه ، وان كل ما قالته له من أمر الزواج لا يتعدى السخرية منه والهزء به ، وانها فاولته مذكرتها ليقرأ فيها تلك الصفحات التى كانت قد كتبتها عنه .

قال الضابط (ألقيت نظرة عجلى على تلك الصفحات — وذهبت الى الرصيف حيث كانت تخطر جيئة وذهاباً تنتظرنى ريثما أفرغ من قراءتها وسددت اليها مسدسى فقتلتها . وتلك هى المذكرة فى جيب معطفى ، انظر تحت تاريخ ١٠ يوليو من السنة الماضية . . .) . وهذا ما قرأه المحقق :

« الساعة الآن الثانية صباحاً ، استغرقت فى نوم عميق لكننى ما لبثت أن استيقظت مرة أخرى . . . أصبحت اليوم امرأة . ابى وأمى و(توليا) كلهم سافروا الى المدينة وبقيت وحدى. ما أسعد الانسان أن يكون وحده . آه لو أستطيع أن أصف مبلغ سعادتى بوحدتى هذا اليوم . فى الصباح أخذت أتمشى فى البستان بالمزرعة . دخلت فى الأيكة الوارفة الظل . خيل إلى أننى وحدى فى هذا العالم كله . ليس فيه غيرى . لم تلم بى قبل اليوم أمثال هذه الخواطر والأفكار اللذيذة . . . ما أحلاها . . . تناولت طعام الغداء وحدى ، ثم لعبت ساعة من الزمن . . . وألقت الموسيقى فى روعى بأننى يجب أن أعيش أبداً وأن أكون أسعد مخلوق على وجه الأرض ! ثم أخذتنى سنة من الكرى فى غرفة الاستقبال الخاصة بأبى . وفى الساعة الرابعة أيقظتنى (كيت) وقالت لى إن (الكسى ميكالوفتش) قد حضر الى هنا . كم سررت بلقائه . كم كان جميلا أن استقبله وأكرم مثواه . جاء ومعه جوادان مطهمان . ما أجلهما ؟ ظلا طيلة لبثه واقفين عند الباب الأمامى . لكنه لبث هنا لأن المطر كان ينهمر كأفواه القرب وأنه يرجو انقطاعه وجفاف الطريق عند المساء . أسف أشد الأسف لعدم لقائه ابى فى البيت ، كان مبتهجاً خفيف الروح مترعاً بالحياة ، عاملنى بكل لطف وأدب . وصار يتنادر معى ويذكر فى دعابة وفكاهة أنه وقع فى شراك حبى من زمن بعيد . وقبيل تناول الشاى أخذنا نخطر فى البستان بين الرياحين والأغصان المتمايلة وكان الجو رائعاً فاتنا ، ولكن البرد طفق يشتد ، وظللنا نمشى معاً ذراعاً بذراع ، وقال كأنه مى فاوست مع مرجريت ! . هو فى السادسة والخمسين ، الا أنه لم يزل وسيماً جذاباً . حسن الهندام دائماً — والشىء الذى أنكرته عليه هو أنه جاء اليوم متلفعاً بلفعة تفوح منها رائحة عطر انكليزى ولا تزال عيناه عينى شاب يافع . لحيته طويلة مسترسلة . مفروقة فى وسطها فرقاً جميلا — هى فضية لامعة . — تناولنا الشاى فى الشرفة الزجاجية ، وشعرت بغتة أن وعكا خفيفاً عراني فاستلقيت على السرير وظل هو يدخن . ثم جلس بقربى وشرع يقول أقوالاً لذيذة ، فيها متعة ، وفيها ما يستثير كامن الوجد ومكبوت الهيام . ثم تناول يدى فطبع عليها قبلة حارة . . . فجعلت من منديلى الحريرى الكبير ستراً أسدلته على وجهى ، وجعل ينهال بالقبلات إثر القبلات من فوق المنديل على شفتى . . . لا أدرى كيف وقعت الواقعة ! . لا أستطيع أن أقول كيف حدثت ، قد جن جنونى ! . . ما كنت لأحلم يوماً أننى أكون كتلك اللحظة . . والآن لا أشعر نحوه بغير شىء واحد : الاشمئزاز الذى لا قبل لى بحمله . أواه ! ما أشد ما ثار فى نفسى بعد ذلك من المقت له !!

***

المدينة فى هذه الأيام من ابريل نظيفة نقية ، قد ذهبت بأدرانها وأقذارها أمطار الشتاء ، وبدت حجارتها بيضاء ناصعة ، وأصبح السير فوقها محبباً شهياً . . . فى كل يوم أحد بعد القداس ترى فى شارع الكنيسة المؤدى الى خارج المدينة امرأة قمئة ضئيلة الجسم تلبس الحداد ، فى يديها قفازان من جلد المعز الاسود ، تحمل مظلة مقبضها من الأبنوس ، تراها تسير فى الشارع وما تنتهى منه حتى تجوز ساحته ، ثم تعبر السوق المتهدمة حيث الحدادون الكثيرون ، وحيث النسيم يهب رقيقاً عليلاً من الحقول القريبة . وهناك على بعد كبير بين الدير والسجن ترى العين المنحدر الأبيض من القبة السماوية ، والحقول المترامية تغتسل فى تلك القتمة الرمادية . . . وبعد ذلك ، بعد أن تجوز البركة الكدرة خلف الدير ترى ما يبدو لك كأنه حديقة فسيحة واطئة محاطة بسور أبيض كتب على بابه : (صعود سيدتنا الى السماء The Assumption of Our Lady) . هناك تقف المرأة وقفة قصيرة

ترسم مسرعة بيديها صليباً على صدرها وتسير سالكة الطريق الأصلي ؛ ومتى وصلت المتعمد إزاء الصليب الجديد المصنوع من خشب البلوط ، جلست في تلك الريح الشديدة وذلك الهواء القارس ولبثت كذلك ساعتين . . حتى تؤلمها قدماها من شدة البرد ، وهما في ذلك الحذاء الخفيف . وحتى تكاد تجمد يداها من قسوته ولذعته . وبينما هي تستمع لأطيار الربيع تصدح بالغناء العذب ، والصوت الرخيم الرقيق حتى في ذلك البرد القارس . وبينما هي تصغي الى صفير الريح تمر من تجاويف اكليل الخزف وتضاعيفه تبرق في رأسها فكرة أنها تقدم نصف حياتها لو أن ذلك الاكليل البارد الميت لا يكون أمام عينيها . ثم ان (اولجا مسجرسكي هي التي دفنت في ذلك القبر) ، هذه الفكرة وحدها، تغمرها في لجة من الذهش البالغ والحيرة المتناهية ، فيبدو عليها وجوم عميق وذهول غريب وجزع مروع : كيف يستطيع الانسان أن يجمع بين طالبة غضة بضة لا تتجاوز سنها السادسة عشرة ، كانت قبل شهرين أو ثلاثة تتفجر حياة ، وتسطع فتنة ، وترفل بأزهى حلل السعادة والهناء . كيف يستطيع الانسان أن يوفق بينها وبين تلك الأكمة من التراب وذلك الصليب الخشبي ؟ أيمكن أن تكون هذه هي نفس هذه الفتاة التي تشع عيناها بالخلود الأزلي من هذا الاطار النحاسي ؟ وكيف يستطيع الانسان أن يجمع بين هذه الطلعة المشرقة الوضاءة وتلك الحادثة الفظيعة التي ترافق الآن اسم (اولجا مسجرسكي) ؟ رحماك يارب ! إن هذا ليعجز الافهام . . ولكن هذه المرأة القمئة الضئيلة الجسم سعيدة في قرارة نفسها ، سعيدة كأولئك العاشقين الذين وقفوا حياتهم على حلم عاطفي جميل . . .

هذه المرأة هي معلمة (اولجا) في المدرسة . فتاة أربت على الثلاثين ، ظلت منذ زمن بعيد عائشة على هوس في قرارة روحها كان هذا الهوس أول الأمر ينتاب أخاها — وهو ملازم في الجيش ليس فيه ما هو جدير بالاهتمام أو قمين بالالتفات — كل روحها كانت معلقة به ، متصلة بمستقبله بأمتن الصلات ، اتصالا تتصور أنه لابد يوماً مود بها الى أرض من أراضي عبقر . وبعد ذلك لما قتل أخوها في (موقدن) أقنعت نفسها بأنها — ويا للسعادة ولحسن الحظ — ليست كالأخريات ، وانها بدلاً من الجمال ، وبدلاً من أن تكون امرأة حقيقية تتمتع بما للمرأة من أنوثة ، بدلاً من ذلك لها عقل راجح ، وفكر ثاقب ، هو أسمى من هذه الدنيويات السافلة ، هي عاملة من عمال المثل الأعلى .

واولجا الآن محور أفكارها وخيالها ومبعث كل ابتهاجها وسرورها ، في كل عيد أو عطلة أن تهرع الى قبرها -- وقد ألفت الذهاب الى المقبرة بعد موت أخيها — تظل ساعات طوالا شاخصة الى الصليب الخشبي . تذكر وجه (اولجا مسجرسكي) الشاحب المصفر وسط الأزاهير في النعش وتذكر أيضاً ما سمعته ذات مرة : ذات مرة في فرصة الغداء بينما كانت (اولجا مسجرسكي) تتمشى في بستان المدرسة تقول مسرعة عجلى لصديقتها الحيمة (سبوتين) الطويلة البادنة : (كنت أقرأ في كتاب من كتب أبي — وان لأبي لكتباً قديمة لا تحصى ، أكثرها غريب نادر فيه الوفير من المتعة وفيه الجزيل من اللذة — قرأت عن الجمال الذي يجب أن تملكه المرأة ، وما أكثر ما هو مسطور هناك ، لست أذكره كله ، لكنني أحفظ منه بعض الشيء ، اسمعي : عينان سوداوان فاحمتان كالقار يغلي في جفنة ، صدقيني ، هكذا كان مكتوبا هناك ... كالقار يغلي في جفنة ! احاجبان سوداوان كالليل البهيم ، حمرة غضة تخضب الاهاب ، قد أهيف ، يدان أطول من المعتاد ، قدمان صغيرتان ، نهدان بارزان ، ساقان مستديرتان متسقتان ، ركبتان يحكي لون رضافهما لون داخل الأصداف . كتفان عاليان لكنهما منحدران — لقد كنت أحفظ أكثره غيباً ، كله صحيح ، ما أشده انطباقاً على الواقع ، ولكن أتدرين ما هو أهم من كل هذا ، هو النفس الرقيق الناعم اللين ، وليس هو إلا هذا الذي أتنفسه أنا . . . . من الأعماق ، اصغ إليّ ، ألا تجدينه عندي ! ! . . أليس هو رقيقاً)

والآن قد تلاشى النفس الرقيق مرة أخرى في العالم ، في ذلك اليوم الأشهب الغائم في ريح الربيع الباردة القارسة ...

بغداد ع . الحري